# الفصل السادس

## ( مسجد الصالح طلائع )

هـذا آخر المساجد الفاطمية [1] ، أسس والدولة تعالج سكرات الموت وتوشك أن تلفظ النفس الأخير ، وهو على صغره يعد من أروع الآثار الفاطمية اذ يلخص لنا كثيرا من مميزات عمارة تلك الدولة ، كما يعتبر من أهم المساجد الاسلامية عامة بما يجلوه علينا من بعض خصائص معمارية قلما نجدها ممثلة فى مسجد آخر .

يتقدم مدخله سقيفة تمتد على طول واجهته البحرية بين جزءين بارزين فى طرفى الواجهة ( انظر اللوحة العشرين ) يرجح أن أحدهما كان غرفة للخدم بينما كان فى الآخر مورد ماء يستقى منه المارة ، ويعتمد سقفها على خمسة عقود محدبة keel arch تتكىء على عمد رخامية يمتد بينها حجاب من الخشب المخروط جميل المنظر ، وأغلب الظن أن موضع هذا الحجاب الخشبي الذى جددته ادارة حفظ الآثار العربية واختارت له هذا المكان لا يتفق مع ما كان عليه المسجد عند انشائه ، ولئن صحت الصورة التى رسمها المسيو بريس دافن

سنة ١٨٧٧ ( أنظر اللوحة الحادية والعشرين ) ـ ولا نخالها إلا صحيحة ـ لكان الموضع اللائق بهذا الحجاب هو داخل المسجد فى واجهة إيوان المحراب المطل على الصحن[٢].

وهذه السقيفة لا نظير لها فى مساجد العالم الاسلامي إذا أستثنينا مسجدا صغيرا أنشأه أحد حكام دولة الاغالبة فى مدينة سوسه من أقليم تونس يعرف بمسجد ابى فتاته[٣] وفى الحق أن دولة بنى الاغلب التى ذكرنا بها هذا المسجد لجديرة بأن نقف عندها قليلا لأن لها فى حضارة العالم اجمع أثرا ينبغى الا يجهل ، أسس هذه الدولة فى شمالى أفريقيه إبراهيم بن الاغلب وقد أقترح على هارون الرشيد أن يجعل الحكم وراثيا فى أسرته نظير أربعين الف دينار ترسل سنويا إلى بيت المال ببغداد فقبل الرشيد ذلك مشترطا موافقة الخليفة على من يتولى الحكم من أفراد الأسرة ، واجابة هذا الطلب — والدولة العباسية فى عنفوان قوتها — يكشف لنا عن حسن سياسة هذا الخليفة وبعد نظره وينم عن حصافة رأيه نظرا لبعد هذا الاقليم عن مقر الدولة وتعذر حكمه حكما حازما . واتجه الأغالبه الى توسيع أملاكهم فأسسوا أسطولا عظيما فتحوا به جزر صقلية ومالطه وسردينه وغزوا به شواطىء فرنسا الجنوبية وشواطىء إيطاليا بل وحاولوا أن يقتحموا

روما ولكنهم صدوا عنها . واذا عرفت أن هذه الجزر والبلاد تعتبر فى الواقع جزء من أوربا ، وتذكرت ان الاغالبة اسرة مستنيرة عملت على نشر الحضارة الاسلامية فى جميع البقاع التى حكمتها استطعت أن تدرك أهمية هذه الدولة ، فلقد كانت همزة الوصل بين المدنية الاسلامية وبين أوربا ، بل لقد نثرت فى بلاد الغرب بذور تلك الحضارة الرائعة التى هى إحدى الاسس المتينة التى قامت عليها الحضارة التى تسود العالم فى الوقت الحاضر .

* * *

هذه السقيفة التى ذكرتنا رؤياها بتلك الصفحة الذهبية من تاريخ أجدادنا الأولين تظل واجهة رائعة مشيدة بالحجر ، قريبة الشبه من واجهة الجامع الأقمر إذ تزدان مثلها بتجويفات متعددة تنتهى من أعلى بزخرفة على هيئة المروحة وبها نقوش نجمية الشكل غاية فى الجمال . ويزينها من أعلى طرازان من الكتابة الكوفية العلوى منهما به آيات من القرآن الكريم والسفلى به كتابة تأسيسية هى آخر كتابة من نوعها نقشت بالخط الكوفى على المساجد نقرأ فيها .

« . . . . أمر بانشاء هذا المسجد [بالقا] هرة المعزية المحروسة فى مولانا وسيدنا الامام عيسى أبى القاسم الفائز بنصر الله أمير

المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين [ وأبنائه الأكرمين الـ] سيد [ الأجل ] الملك الصالح ناصر الأئمة وكاشف الغمة أمير الجيوش سيف الاسلام غياث الأنام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين [أبوا] لغا [را]ت طلائع الفائزى عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته ونصر ألويته وفتح له وعلى يديه مشارق الأرض ومغاربها فى شهور سنة خمس وخمسين وخمس ماية والحمد .. » (٤)

ونلاحظ ان هذه الكتابة التأسيسية مثل كتابة الجامع الأقمر يقترن فيها اسم الخليفة باسم الوزير مما يشعر بأن الوزير ما زال هو اليد المحركة للدولة ، ويؤكد هذه الحقيقة ويزيدها جلاء ظهور لقب جديد ضمن ألقاب الوزير هو لقب « الملك » الذى يعنى على حد قول القلقشندى - الزعيم العظيم ممن لم يطلق عليه اسم الخلافة ، ولقد ظهر لأول مرة على عهد الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله ، وكان وزيره رضوان الوخشى أول من تلقب به سنة ٥٣١ هـ ثم صار منذ ذلك التاريخ من ألقاب الوزراء الفاطميين (٥)

ويستلفت النظر فى جدران هذا المسجد من الخارج ظاهرة معمارية لم نرها فى المساجد السابقة عليه هى نهايات أعمدة ممتدة فى اتجاه افقى فى عرض الحائط . ترى ما وظيفة هذه الأعمدة

العربية ؟ وهل هى من مبتكرات المسلمين أم نقلوها عن غيرهم من الأمم ؟

أما وظيفتها فهى ربط أجزاء الجدار بعضها ببعض بقصد تقويتها وتوثيقها : وقد بدأ بها المسلمون إذ استعملوها لأول مرة عند انشاء ميناء عكا على عهد ابن طولون . ولقد اتبعت هذه الطريقة لأول مرة فى الاسوار الفاطمية للقاهرة ثم فى المسجد الذى نتحدث عنه الآن ثم اختفت بعد ذلك نحو مائة عام أو تزيد وعادت الى الظهور فى جدران مسجد الظاهر بيبرس(٦) .

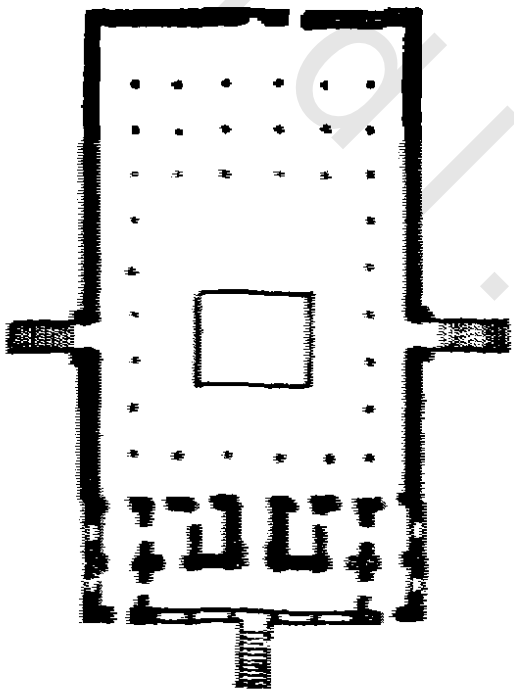

( ١٥ — قصبة سعد الصالح طلائع )

ومئذنة مسجد الصالح كانت مثل مئذنة الجامع الأقمر فوق المدخل الرئيسي ، وتخطيطه الداخلى كتخطيط ذلك الجامع (شكل ١٥) قوامه صحن مكشوف تحيط به من الجهات الأربع أروقة مسقوفة ، فى جهة المحراب منها ثلاثة وفى كل من الجهات الأخرى رواق واحد ، ويتوسط الصحن صهريج كان يملأ بالماء وقت الفيضان بواسطة ساقية متصلة بالمسجد ومقامة على الخليج قرب باب الخرق ( الخلق ) .

ونوافذه تردان من الداخل بالجص المزين بالزجاج الملون ، ويملأ فتحاتها من الخارج جص قد فرغت فيه زخارف جميلة تذكرنا بنوافذ قبة الصخرة ، أما أبواب المسجد فثلاثة واحد فى كل واجهة من واجهاته البحرية والشرقية والغربية ، وهو فى ذلك يشبه المسجد الأموى بدمشق .

وعقود هذا المسجد من الطراز المحدب الذى شاهدناه فى الواجهة ورأيناه لأول مرة فى الجامع الأقمر ، ويحف بها إطار من الجص منقوش به آيات من القرآن الكريم بخط كوفى جميل تزدحم فيه العناصر الزخرفية ، وهو يختلف عن طراز الخط الموجود على الواجهة تبعا لاختلاف المادة المنقوش عليها كما هو الحال فى مسجدى الحاكم والأقمر . ويزين خواصر العقود وريدات من

الجص رائعة الجمال ( أنظر اللوحة الحادية والعشرين ) تدل طريقة عملها على أن الفنان المسلم قد اكتملت فيه الملكة الفنية فعمل على تصحيح التخيل النظرى بأن حوّر فى شكل تلك الوريدات وجعلها بحيث تبدو للرائى من أسفل كأنها متناسقة فى اجزائها وما هي فى حقيقتها كذلك وتتكىء العقود على أعمدة من الرخام مأخوذة من المبانى القديمة السابقة على الأسلام ، ولها تيجان مختلفة الطرز ، ويعلوها طبالى من الخشب مزينة بزخارف محفورة ، ويمتد بينها اوتار خشبية تحليها نقوش حفرت بدقة وعناية تمثل أوراق أشجار وتذكرنا بما رأيناه فى مسجد الحاكم .

ومحراب هذا المسجد تعلوه كوة فوقها مربع صغير مملوء بزخرفة مفرغة فى الجص ويشاهد مثلها فوق العقود والنوافذ . والعقود القائمة امام المحراب تتسع فرجتها قليلا عن باقى العقود مما يشعر بأن فكرة المجاز كانت فى رأس المهندس الذى صمم المسجد .

* * *

ويعتبر هذا المسجد أول جامع « معلق » انشىء فى القاهرة ، والمراد بهذا الوصف غير الدقيق هو أن أرضية المسجد جعلت مرتفعة عن مستوي الطريق بحيث تسمح بايجاد حوانيت فى أسفله تتخذ للتجارة . والواقع انه لتصميم بديع يدل على براعة

المهندس الذى خطط هذا المسجد إذ استطاع أن يستفيد من تلك البقعة التجارية الواقعة على الطريق الرئيسى بين العاصمة القديمة: مصر ( اى الفسطاط والعسكر والقطائع مجتمعة ) وبين العاصمة الجديدة : القاهرة ، بايجاد تلك الحوانيت التى تدر على الجامع ما يضمن له البقاء ويكفل له الرعاية

* * *

ويقول المقريزى فى خططه عند الكلام على هذا المسجد : « كان الصالح طلائع بن رزيق لما خيف على مشهد الأمام الحسين رضى الله عنه اذ كان بعسقلان من هجمة الفرنج وعزم على نقله قد بنى هذا الجامع ليدفنه به فلما فرغ منه لم يمكنه الخليفة من ذلك وقال لا يكون إلا داخل القصور الزاهرة ، وبنى المشهد الموجود الآن ودفن به » (٧) .

ورواية المقريزى هذه التى نقلها عن مؤرخ سابق عليه هو ابن عبد الظاهر بعضها لاريب فى صحته وبعضها يحوم حوله الشك فتهديد الفرنج ( الصليبين ) لمدينة عسقلان ، ونقل رفات الحسين رضى الله عنه إلى مصر ، وبناء مشهد لها داخل القصور الفاطمية أمور لا شك فيها يؤيدها التاريخ والواقع المحسوس ، واما بناء الصالح طلائع لهذا المسجد بقصد جعله مشهدا فأمر

لا يستطيع أن يؤيده علم الآثار لأن تخطيط المسجد ، وارتفاع أرضه عن مستوى الطريق العام لا يسمحان بوجود مدفن فى داخله ، ثم موقعه خارج أسوار القاهرة ، وتعريضه بذلك لهجمات الأعداء لا يتفق مع مكانة الأمام الحسين فى النفوس (٨)